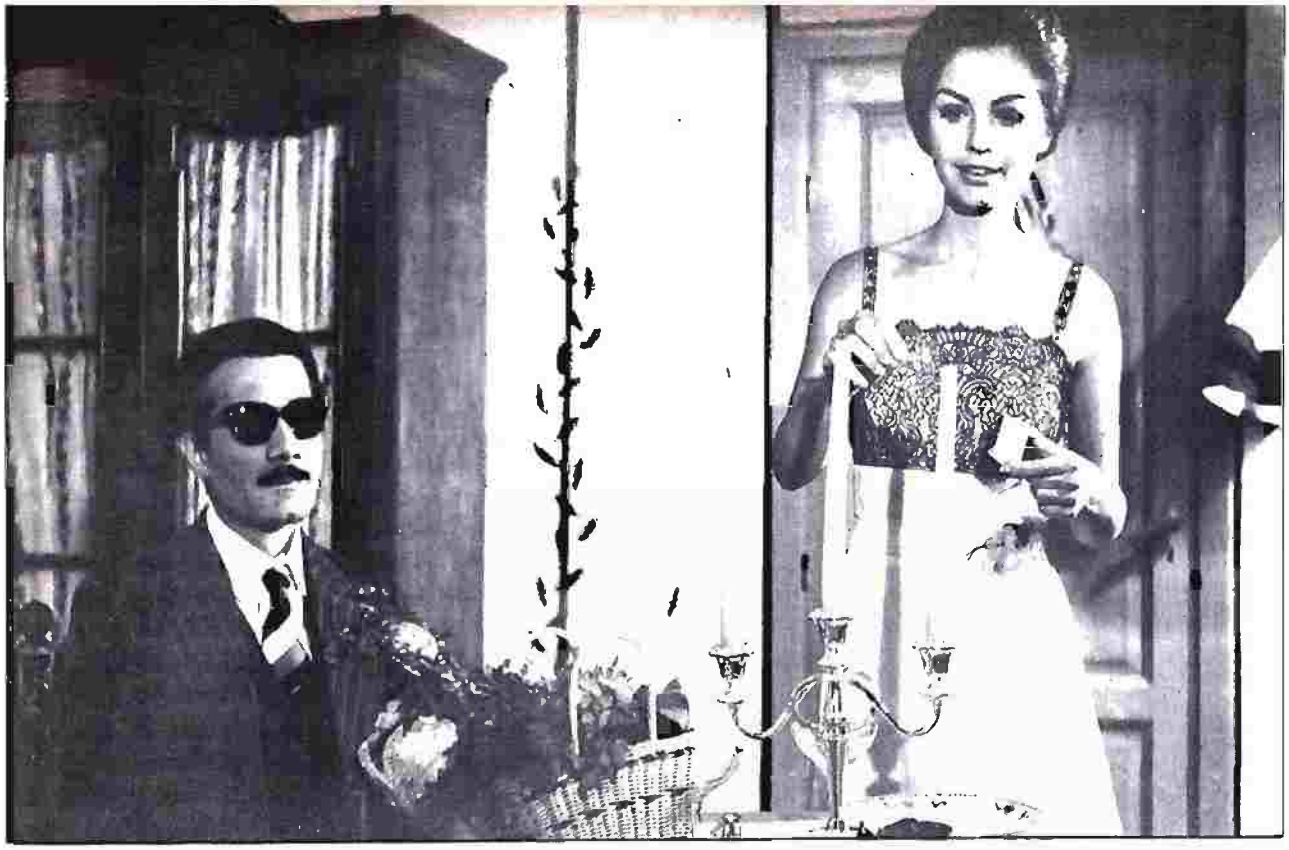

● طه حسين وزوجته نفيل محمود ياسين مع بولانت نوليو

فنون

إطلاق الرصاص على قاهر الظلام!

عائشة صالح

عاد إطلاق الرصاص فى معركة طه حسين. المتوقع أن تشتد المعركة عنفا عندما ينتهى تصوير الفيلم الذى يعرض حياة طه حسين. فى الأفق أن جبهات أخرى لن تسكت ولن تلتزم الحياد فى المعركة.

يتم الآن تصوير فيلم «قاهر الظلام». الفيلم عن حياة الدكتور طه حسين. يبدأ بعربة فاخرة تقترب من باب جامعة القاهرة ليها الدكتور طه حسين. وزير المعارف. ينعدل الحرس الجامعى لاستقباله. يستقبلونه بالتكريم والتحية، تنساب العربة من الباب إلى الداخل. لا يرى الدكتور طه تحية الحرس، فهو لا يرد عليهم.. منذ ربع قرن حدث مشهد آخر، طالب يقترب من أبواب الجامعة يريد أن يدخل. لكن الفقر وضع سماته على ملابس هذا الطالب. يظن الحرس أنه غريب يريد أن يتسلل إلى الجامعة فيردونه، ولا يسمحون له بالدخول. هذا الطالب هو نفسه الذى أصبح يملأ المجتمع المصرى والعربى ضجة. ما يكاد يتكلم حتى تندفع أقلام كثيرة ترد عليه، وتهاجمه وتثير الناس عليه.

● هل تعود المعارك. معركة طه حسين والنقاد. لم تهدأ حتى بعد أن صمت قلم طه حسين فى عام ١٩٦٧. منذ ذلك الوقت لم يكتب طه حسين. إنما اكتفى بأن يقوم برحلات. ويلقى محاضرات. فلما بدأ الإعداد للفيلم. بدأت الإنذارات بمعركة جديدة. صدر كتاب يهاجم طه حسين. ردت مجلة الهلال على الكتاب بدراسة طويلة. كتبت مجلة الجديد تدافع عن إيمان طه حسين. صدرت مجلة إسلامية تطالب بمنع عرض الفيلم. والفيلم يمضى، عن قصة للكاتب الصحفى كمال الملاخ. أسند السيناريو إلى المخرج الإذاعى سمير عبد العظيم، وأسند إخراجه إلى سعيد مرزوق، بعد فترة أدخلت تعديلات. أسند إخراجه إلى عاطف سالم، اقتضى هذا تعديلات فى السيناريو. فانضم صبرى موسى، ود. رفيق الصبان إلى سمير عبد العظيم لإعداد السيناريو. سافرت بعثة الفيلم إلى باريس. صورت جزءا من الفيلم. عادت البعثة. صورت جزءا آخر فى حى الدرب الأحمر. والتصوير مستمر. بطولة محمود ياسين والنجمة الفرنسية بولانت نوليو. ولا يسمح لأحد بأن يرى السيناريو. التقيت مرة مع المخرج عاطف سالم قلت له أريد قراءة السيناريو. وافق. لكنه زاغ بعد ذلك. عاتبنى زميل. قال مستنكرا بقى عاطف بالذات يكن يسيب لك السيناريو؟! مش معقول.

حدث الشيخ أمين الخولى أنه عندما ذهب لأداء الحج وكان معه طه حسين استلم طه حسين الحجر الأسود. ظل يتنهد ويبكى. ويقبل الحجر حتى وقفت مواكب الحجيج انتظارا لأن يغادر هذا الأديب الكبير المكفوف مكانه. ولكنه أطال البكاء والتنهيد والتقبيل ونسى نفسه. فتركوه فى مكانه وأجهشوا معه بالبكاء والتنهيد.. وهذا المشهد الرائع يمثل القوة الخارقة التى كانت تسيطر على عقله وفكره وشعوره وهى قوة الإيمان بالله الواحد الأحد.. والذى يروى هذا هو عبد المنعم شميس فى مقاله «طه حسين والإسلام» الذى نشر فى عدد يونيو من مجلة الجديد.

● صعب أن نعثر على قلم لم يهاجم طه حسين. الذين لم يهاجموه قلة. بعض الهجوم يصل إلى التجريح الشخصى.

●● هذا مستوى من الهجوم على طه حسين رواه أنور الجندى فى كتبه «طه حسين حياته وفكره فى ميزان الإسلام». كان هم كتاب عصره أن يشوهوه. ولو بهذا الأسلوب..

●● بقية الاتهامات تتمثل..

أولا:

أن طه حسين كسر قاعدة ترابط الأدب العربى بالفكر الإسلامى..

ثانيا:

أنقص قدر الرعيل الأول من الصحابة ورضعه موضع النقد وعامله معاملة محترفى السياسة..

ثالثا:

وصف القرن الثانى الهجرى بأنه عصر شك وظنون..

رابعا:
أناع الأدب المكتوب سواء ماجاء من الأدب العربى القديم «بشار وأبى نواس» أو من الأدب الفرنسى الذى ترجمه

خامسا:
حمل على الإسلام من خلال الأزهر، دعا إلى الفرعونية، ودعا إلى العلمانية، ودعا إلى الغاء التعليم الدينى

سادسا:
أناع الأسطورة فى السيرة النبوية

سابعا:
عمد إلى تدمير الشخصيات الإسلامية اللامعة وفى مقدمتها ابن خلدون والمتنبى.

ثامنا:
حاول تتبيع الأدب العربى للأدب اليونانى، وتتبيع الفكر الإسلامى للفكر الغربى

تاسعا:
اعتمد مصادر زائفة وناقصة مثل كتاب البلانرى فى حديثه عن عبد الله بن سبأ، وانكاره وجود شخصيته ودوره فى إثارة الناس على الخليفة عثمان بن عفان.

عاشرا:
تبعيته الظاهرة التى يفاخر بها للاستشراق والتبشير والتغريب..

حادى عشر:
موقفه بالمتابعة من الصهيونية العالمية..

ثانى عشر:
سوء موقفه من أساتذته وزملائه وطلبته وتجريحهم ونقدهم والتهم من كتاب أنور الجندى.

● من قراء طه حسين، مخرج صديق أجاب على سؤال بسؤال، وجهه إلى زميله له موظفة، قال لها هل قرأت توفيق الحكيم، لأن الحكيم ما يزال بيننا، ويكتب فى الأهرام وهى صحيفة يومية، المتوقع أن يكون له قراء أكثر لكن الزميلة قالت إنها لم تقرأ ما كتبه الحكيم، لكنها تسمع عن توفيق الحكيم نفسه، قال المخرج إن توفيق الحكيم شخصية درامية. طه حسين أيضا كذلك الفناء، ومحمد عبد الوهاب، حياة كل منهم مليئة بالأحداث والصراعات وفيها «نجومية» النجم يملأ فكرك ويشغلك بالكلام عنه، حتى لو لم تكن قرأت له، طه حسين أيضا يتحدث عنه الجميع، لكن الذين قرأوا طه حسين قلة، لكننا نعرفه لأن عصر التليفزيون أدركه، وظهر فيه الدكتور طه، وعصر السينما أدركه وقدم له فيلم «ظهور الإسلام» و«دعاء الكروان». من قبل كانت أحاديث طه حسين فى الإذاعة تشد الجمهور، ولم يحبس نفسه داخل الكتاب، والجامعة، وإنما استمر الحوار بينه وبين الجمهور منذ بداية حياته الأدبية فى عام يكتب فى الصحف وله مواقف فى السياسة. ١٩١١، لأنه يكتب فى الصحف، طول عمره من خلال الأحزاب التى انضم إليها، ربما أنهم الذين يهاجمونه ينصب كبير فى أن تكون شعبية طه حسين بهذا الاتساع الكبير.. ما أكثر الذين يعرفونه.. لكنهم يعرفون صورة عامة بلا تفاصيل.

● لما كان طه حسين فى العاشرة من عمره، وهو فى القرية أحب طفلة فى الثامنة. مثله لا نرى، بينما الأولاد يلعبون كان يجلس معها، كل منهما، يتخيل شيئا. هو يتخيل ويحكى، وهى تتخيل وتحكى، حتى بعد أن كبر طه حسين لم ينس أن هذه الطفلة منحته لحظات سعادة رائعة.. لم ينس أيضا أخا له كان يدرس، وكان متفوقا ويحلم بأن ينجح ويدخل مدرسة الطب ليتخرج طبيبا، لكن الكوليرا لم تمهله. أخذته فجأة قبل أن يصبح طبيبا.. ويذكر الدكتور طه شقيقه الذى يكبره، وسيله إلى الأزهر، عندما كان يعود إلى القرية تمتلىء القرية بالضجة للشيخ الصغير، ضجة تكريم أحبها طه حسين، وقرر أن يدخل هو أيضا الأزهر لينال مثل هذا التكريم. فلما بلغ الثالثة عشرة قاوم ليدخل الأزهر، لأن والده أشفق عليه من العمى. أراد أن يكتفى بما تعلم فى القرية وقاوم طه، وأصر وعاند. بذل جهدا حتى اقتنع أبوه وتركه يسافر. فلما عاش فى القاهرة أدرك الحنين إلى القرية فعاد زائرا يتخيل ضجة التكريم، لكن لم تحدث ضجة ولا تكريم. قبل السفر تعلم فى كتاب القرية ولأنه لا يحب سيدنا فإنه صادق «العريف» جذبه إليه بأن جعل له راتبا من قطع السكر كل يوم. كافأه العريف بأن جعله «الأنفة». فتقرب الأطفال إلى طه حسين بقطع السكر، كأن يأخذها ويعطيها للعريف، لما كثرت كان يعطى للعريف راتبه ويأخذ الباقى لنفسه.

حسين قدم على الأزهر لأول مرة. جلس أمام أحد الشيوخ ليتحنه. طه حسين حفظ القرآن الكريم فى كتاب القرية. لما أجاب الإجابة قال له الشيخ «فتح الله عليك يا أعمى» انتفض قلب طه حسين، وقال فيما بعد ليت الشيخ لم يعبر عن إعجابه ولم يدع لى إذا كان القدر أن يقول لى يا أعمى، كانت كلمة أعمى تغيظه، وهو وزير للمعارف فى حكومة الوفد. قبل الثورة جاءته مظاهرة تطلب أن تراه. لما خرج إلى شرفة الوزارة هتفوا بسقوط الوزير الأعمى.. كان شيئا لدغه فى قلبه.. وقال لهم فى ألم غاضب «الحمد لله الذى جعلنى أعمى حتى لا أرى وجوهكم» وهو طالب فى باريس كان زملاؤه يقولون إنه «قاضى الغرام» فما أكثر المصريين الذين يجيون باريسيات وتنشأ المشاكل بين المصرى والباريسية. فيذهبون إلى طه حسين الذى يدرس المشكلة فى تأن، ويحكم فيها بلباقة والثقة فيه تجعل الجميع يلتزمون بأحكامه قاضى الغرام هو أيضا تنح قلبه للحب. أحب زميلته الفرنسية وتزوجها وأنجب منها. فى آلام الوضع لم يكن أحد مع الزوجين، طه حسين وسوزان فقط. فى مكان ناء، بعيد عن باريس. الآلام تجعل الزوجة تصرخ، والزوج رغم عبقريته فى الفكر فإنه وحيد لا يستطيع أن يفعل شيئا. وأراد سمير عبد العظيم الذى كتب السيناريو أن يمتد بالأحداث فى الخيال ليصور حيرة الفكر الكبير يعتمد على الواقع ثم يضيف إليه من الخيال ما يعمقه. لكن زملاءه رفضوا، لما عاد طه حسين من باريس بعد حصوله على الدكتوراه، كان فى حاجة إلى المال، قرأت له زوجته اعلانا عن بأنه تصب خيرى له مكافأة كبيرة، قال نشترك فيه، إننا فى حاجة إلى المال نعد به بيتنا، المكافأة ألف جنيه، لما ظهرت النتيجة كان الذى فاز بالجائزة مليونيرا وليس طه حسين، وظل طه حسين يذكر هذا فترة كما يقول سمير عبد العظيم أحد الذين كتبوا السيناريو لفيلم «قاهر الظلام».

● طه حسين وأخوه.. فى إحدى رحلاته إلى باريس

● بالأرقام. ولد طه حسين عام ١٨٨٩. توفى عام ١٩٧٣، فقد بصره وهو فى الخامسة من عمره، دخل الأزهر عام ١٩٠٢، بقى به حتى عام ١٩٠٨ انتقل إلى الجامعة المصرية القديمة، كان أول من منح درجة الدكتوراه من الجامعة المصرية. رسالته كانت عن «أبى العلاء» عام ١٩١٤، سافر فى بعثة إلى فرنسا حصل على الدكتوراه عام ١٩١٧، رسالته عن ابن خلدون. درس فى جامعتى مونبلييه والسربون. بعد عودته قام بالتدريس فى الجامعة المصرية، ظل يرقى حتى أصبح عميد كلية الآداب، أخرج منها ١٩٣٢، وأعيد إليها فى ١٩٣٤، واستمر بها إلى ١٩٣٩، ثم انتدب مستشارا لوزارة المعارف، ثم أصبح مديرا لجامعة الإسكندرية، ثم مديرا للثقافة بوزارة المعارف. أحيل إلى المعاش ١٩٤٩، اختير وزيرا للمعارف فى وزارة الوفد عام ١٩٥٠، بدأ حياته الأدبية ١٩١١ بمقالات منشورة فى الصحف فى عام ١٩٢٦ ظهر كتابه فى الشعر الجاهلى الذى أثار ضجة كبيرة، ظل يكتب حتى عام ١٩٦٧، ثم توقف عن الكتابة تقريبا واكتفى بالرحلة والمحاضرة.

● فعل ورد فعل.. هذه حياة طه حسين، يكتب ما يكتب فيكون له رد فعل عنيف، أو يوجد فعل فيكون هو رد الفعل العنيف، ما يزال كذلك بعد رحيله. كتاب أنور الجندى هجوم عنيف على طه حسين، قيل إنه مذبحة، يقول رجاء النقاش عنه «قضية الشهر هى هذا الكتاب الذى صدر ليهاجم طه حسين أعنف الهجوم، بل إن هذا الكتاب الجديد يعتبر مذبحة كاملة لطه حسين فهو يتهمه بعنف فى دينه وأدبه ووطنيته وأخلاقه» ثم يرد رجاء النقاش على الكتاب بالتفصيل فى الحلال بعنوان «طه حسين فى قفص الاتهام». يرد بدراسة طويلة فى عدد مايو ثم يستكملها فى عدد يونيو..

● لكن الأخبرين يطالبون بمنع عرض الفيلم، يقولون كلنا يعرف مدى نظرة طه حسين إلى الأزهر ورجاله. نقد طالما هاجم الإسلام فى أشخاصهم. وبعد وفاته كتب عنه كتاب أسماء مؤلفه «قاهر الظلام» وقد ترامى إلى سمعنا أن هذا الكتاب سيخرج سينمائيا.. ولما كان الفيلم أبعد أثرا وأفسح ساحة فى الغمز واللمز.. ولما كان عرض الفيلم يمس ديننا فى صميمه، لما احتواه من مساس برجال الأزهر وشيوخه فإننا نهيب بالمسئولين أن يمنعوا عرض هذا الفيلم، فلا خير فى حرية رأى تخرب علينا ديننا وتهزأ بالمقدسات الدينية فى البلد. وإننا لنرجو شيوخ الأزهر جميعا أن يبذلوا كل جهدهم فى الحيلولة دون عرض هذا الفيلم ونهيب بكل الجهات الإسلامية بذل جهدها لمنع هذا العبث» بالنص كما نشر فى مجلة «الدعوة» عدد مايو.

● أما طه حسين فإنه أعلن أكثر من مرة إيمانه. قال أشهد ألا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، وأدى فريضة الحج، وكان يقول ان الإسلام أقوى من أن يتأثر بفرد يتركه. ويرد على الذين ينسون فى الهجوم عليه وتجريحه «إننى أعرف الناس بنفسى، وإن ما أعرفه عن نفسى أكثر مما تعرفونه أنتم».

● ● لكن الهجوم لم يتوقف. يبدو أيضا أنه لن يتوقف، شىء ما فى طه حسين يثير الضجة حوله، ويغرى بالهجوم ويبدو أننا على وشك أن نرى زوبعة محورها طه حسين، فى الأفق أن جبهات أخرى لن تسكت، ولن تلتزم الحياد فى المعركة.

●